البصرة في رحلة الإيطالي ديللافاليه
في القرن السابع عشر الميلادي

أ.د. طارق نافع الحمداني
جامعة بغداد، كلية التربية–ابن رشد

- البصرة في عيون الرحالة الأجانب:

حظيت البصرة باهتمام الرحالة الأوربيين في العصور الحديثة، ابتداءً من القرن السادس عشر الميلادي وما تلى ذلك، بسبب كونها أحدى المحطات التجارية الواقعة في رأس الخليج العربي، وفيها تلتقي القوافل القادمة من بلاد الشام، أو من الهند ومناطق جنوب شرقي آسيا. ويُعدّ القرن السابع عشر من بين القرون التي شهدت مثل هذا الاهتمام، إذ وصل إلى البصرة عدد كبير من الرحالة الأوربيين على مدى سنوات هذا القرن. ففي مطلعه كانت رحلة البرتغالي تكسيرا إلى المدينة عام1604[١]، ورحلة الإيطالي ديللافاليه عام1625، ورحلات الفرنسيين الأب فيليب الكرملي عام1629، وتافرنيه عام1638، ورحلات سبستياني وفنشنسو عام1656، ورحلة الأب اليسوعي البرتغالي مانويل غودنهو عام 1663، وبعدها رحلة تيفنو عام 1664، والأب كير عام 1672–1674، وغيرها كثير[٢].

اختلفت أهداف هؤلاء الرحالة ما بين رحلات شخصية كحب المغامرة، مثل رحلة ماركو بولو، أو مشاهدة بلدان الشرق وتراثها الفكري، إلى رحلات موفدة من قبل جهات رسمية لتحقيق مصالح

---

[١] ساراسيرايت، رحلة البرتغالي تكسيرا إلى العراق في القرن السابع عشر، ترجمة فؤاد قرانجي، مجلة المورد، المجلد الثامن عشر، العدد الرابع، (1980)، ص ص246–249.

[٢] لمزيد عن هذه الرحلات ينظر:

FDW Farley in Oaten, European Travellers in India (London, 1959);

إبراهيم محمد ساجت الزبيدي، طريق الفرات الصحراوي "بصرة–حلب" في العصر الحديث، رسالة ماجستير غير منشورة في التاريخ الحديث مقدمة إلى مجلس كلية الآداب، جامعة البصرة، 1411هـ–1990م، ص ص29–33.

اقتصادية وتجارية، من خلال معرفة منافذ جديدة يصل فيها الأوربيون إلى بلدان الشرق، والإطلاع على أسواقها الغنية بكل شيء[٣].

إذ مما شك فيه فان من أهم نتائج عصر النهضة الأوربية في أواخر القرن السادس عشر، اهتمام أوربا بآسيا ومواردها الاقتصادية، فاتجهت أنظارها إلى العالم الجديد وإلى الشرق، للوصول إلى طرق جديدة، برية أو بحرية، فكان اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، والوصول إلى جزر الهند الغربية.

ولا ينكر فان الاستقرار السياسي النسبي الذي شهدته بلاد الرافدين في هذه الفترة، وخاصة عندما أصبحت البصرة تحت الحكم العثماني، وظهور بوادر التقارب العثماني–البرتغالي قد ساعدت على ازدهار النشاط التجاري قياساً عما كان عليه في الفترات السابقة، فازدادت الرحالات البرتغالية والإنكليزية والفرنسية والهولندية إلى المنطقة، لإيجاد مراكز تجارية هناك.

ولم تكن الرحلات الأوربية بعيدة عن الأهداف السياسية، فقد استخدمت الدول والحكومات الأوربية بعض الرحالة لخدمة أغراضها السياسية، بخاصة أبان الحروب الفارسية– العثمانية في القرن السابع عشر. فقد وفد هؤلاء إلى بلاد فارس وإلى الأراضي الخاضعة للدولة العثمانية، لمعرفة طبيعة هاتين القوتين وإمكاناتهما العسكرية، إذ كانت الحكومات الأوربية ترغب في تقديم الدعم العسكري للدولة الصفوية ضد منافستها الدولة العثمانية، لإشغال الأخيرة في حرب مع الدولة الصفوية في الشرق، لإيقاف الزحف العثماني نحو الغرب (أوربا). ومع إن رجالتنا (ديللافاليه) كان ذا توجهات علمية بكل معنى الكلمة، إذ أراد الإطلاع على الآثار الشرقية والتعرف على لغتها وكتبها النادرة، إلا أنه وضع في حسابه التعرف على بعض الشخصيات الحاكمة في الشرق، وبالذات الشاه عباس الأول (1587–1629)، الذي ملأت سمعته الآفاق، فعرض عليه خدماته للمساعدة ضد العثمانيين[٤].

وقبل ان نتحدث عن معلومات هذه الرحلة، نذكر صورة وافية عن نشأة ديللافاليه ورحلته التي قادته إلى مدن مختلفة في الشرق، ومن بينها بغداد والبصرة، التي كتب منها رسائل عديدة حملت إنطباعاته عن المدة التي مكثها هناك، بصفته شاهد عيان.

ولد بيترو ديللافاليه في 11 نيسان سنة 1586 في أسرة نبيلة في روما قاعدة إيطاليا، فلما أنس والده منه الذكاء دفعه منذ نعومة أظفاره ليتلقى الآداب والعلوم على أيدي أمهر الأساتذة. كما

---

[٣] يوسف حبي، ديلافاليه في العراق، مجلة آفاق عربية، السنة الثالثة عشرة، أيار، 1988، ص145.

[4] J.D. Gurney, Pietro Della Valle: The limits of Perception, Bulletion of The School of Oriental and African Studies, Vol. XLIX, Part.1, 1986, P.106.

درس الإيطالية واللاتينية واليونانية، ثم أشتغل في الطبيعيات والفلسفة والإلهيات، فحصل على جانب كبير منها[٥].

وما كادبيترو يفرغ من دروسه حتى شغف بفتاة من طبقته، وأراد اتخاذها رفيقة لحياته، غير ان والدة الفتاة صرفتها عن هذا الشاب، فتزوجت من غيره، فأصيب بخيبة أمل كبيرة، وجعلته يفكر بالابتعاد عن وطنه، والتنقل في أرض الله الواسعة، وانتقى بلاد الشرق ميداناً لرحلته[٦]، بخاصة وان هذه البلاد هي مهبط الوحي، وغنية بالآثار القديمة ومصدر الثروة والتجارة المعروفة آنذاك.

بدا ديللا فاليه رحلته إلى الشرق في الثامن من حزيران سنة 1614، وكانت وجهته الأولى اسطنبول، حيث أقام فيها ردحاً من الدهر (أكثر من سنة)، تعلم في اثنائها اللغة التركية، وفي العام التالي رحل إلى مصر، ومنها إلى فلسطين، وواصل سفره إلى دمشق فحلب فبغداد، وفيها حطّ رحلته في العشرين من تشرين الأول سنة 1616. وفي أثناء إقامته في بغداد أولع بفتاة عراقية من أصل نسطوري تدعى (معاني)، فطلب يدها من والدها فزفت إليه. وبعد إقامته زهاء ثلاثة أشهر في بغداد تركها مع إمرأته في 4 كانون الثاني سنة 1617 قاصداً بلاد فارس. وهناك وجد حظوة كبيرة لدى الشاه عباس الأول، حتى أنه كان يرافقه في أسفاره وحملاته، إذ كان هذا الشاه يسعى لكسب ود الأوربيين بخاصة الإنكليز والهولنديين، لتقوية جانبه تجاه العثمانيين[٧].

فكر ديللا فاليه بالعودة إلى بلاده في هذا الوقت، الا أنه أراد العودة عن طريق الهند، غير ان زوجته معاني أصيب بالمرض وتوفيت في الثلاثين من كانون الأول سنة 1621، فشق عليه وفاتها جداً وبكاها كثيراً ثم حنطها وأودعها تابوتاً من الخشب الثمين، وإذا لم يستطع التخلي عنه صار يحمله معه في كل أسفاره وتنقلاته حتى عودته إلى بلدته روما في الثامن والعشرين من آذار سنة 1626، حيث دفنها هناك. وبعدها انشغل بأمور علمية كثيرة، حصيلة سفراته الطويلة إلى أن توفي في روما في الحادي والعشرين من نيسان سنة 1652، ودفن إلى جانب زوجته العراقية "معاني"، حيث مدفن أسرته الكريمة[٨].

كتب رحالتنا أربعاً وخمسين رسالة بعث بها إلى أصدقائه في روما ونابولي. وقد جمعت هذه الرسائل في ثلاثة أجزاء: الجزء الأول منها تضمن أخبار البلاد العثمانية وطبع في حياته، والجزء

---

[٥] الخوري عبد الأحد جرجي، قصة بطرس السائح 1586–1652، مجلة نشرة الأحد ، السنة الأولى، العدد6، شباط 1922، ص93.

[٦] ديللا فاليه، رحالة ديللا فاليه إلى العراق، ترجمة وتعليق د. بطرس حداد، شركة الديوان للطباعة، بغداد، 2000، ص4–5؛ حبي، المصدر السابق، ص146.

[٧] جرجي، المصدر السابق، ص94؛ حبي، المصدر السابق، ص146؛
Gurney, Op. Cit., P.106.

[٨] جرجي، المصدر السابق، ص94–95؛ رحلة ديللا فاليه، ص10.

الثاني يتضمن أخبار بلاد فارس، والجزء الثالث يضم أخبار الهند وعودته إلى الوطن. وحري بالقول فانه في هذا الجزء قد تجول في المدن الهندية ووصفها وصفاً دقيقاً متقناً كمألوف عادته[٩].

أما الرسائل التي تخص البصرة فتقع بين الرسالة الثامنة والرسالة الحادية عشرة، في الجزء الثالث من الرحلة، وقد كتبها بعد عودته من الهند، حيث مرّ بمسقط، ومن ثم البصرة، وقد صادف ذلك أثناء حصار الفرس للمدينة عام1625[١٠].

ومما يذكر ان هناك رسائل أخرى في الجزء الثالث تخص البصرة، وان كتبت في مناطق أخرى، وتأتي أهمية هذه الرسائل لكون ان ديللا فاليه كان موجوداً في البصرة عام 1625. ويعتبر أوتينOaten وهو من المهتمين بالرحلات الأوربية وتصنيفها بان رحلات ديللا فاليه هذه تعد من أفضل ما كتب في أدب الرحلات، وان رحالتنا هو "أفضل رحالة"[١١].

2- البصرة في رحلة ديللا فاليه:

على الرغم من قيمة المعلومات التي أوردتها رحلة ديللا فاليه، فان مما يزيد من أهميتها ان عبد علي بن رحمة الحويزي، المؤرخ المعاصر لآل افراسياب، والمرافق لعلي باشا إفراسياب (1623-1650)، في تنقلاته، لم ينقل لنا الا نتفاً من المعلومات المتعلقة بوضع البصرة التجاري وعلاقتها مع القوى الأوربية، في حين جاءت أخبارها واضحة عند ديللا فاليه. وبهذا تعطينا هذه الرحلة معلومات لا يقدمها لنا الحويزي، ولا أي مصدر عربي آخر.

نالت هذه الرحلة اهتمام الخوري عبد الأحد جرجي، مدير نشرة الأحد منذ عام 1922، إذ نشرها ضمن (نشرة الأحد)، (وضيعة أسبوعية دينية علمية تاريخية اجتماعية)، وعل شكل حلقات، ملخصاً أخبار رحلة ديللا فاليه، ومركزاً على البصرة بعدّها نقطة رئيسية في الطريق الصحراوي ما بين البصرة وحلب.

على ان ترجمة مفصلة لهذه الرحلة قد قام بها الأب الدكتور بطرس حداد، تحت عنوان "رحلة ديللا فاليه إلى العراق"، وصدرت في بغداد عام 2001، وبها جاءت الرسائل التي كان ينقلها رحالتنا إلى أشخاص كان على صلة وثيقة بهم، ناقلاً أخبار البصرة وغيرها من المدن التي أقام بها، فأودع بها أخبار هذه المدن، التي كانت أغزر مادة تركها لنا.

ومن هاتين الترجمتين، ومطابقتها مع نصوص الرحلة الأصلية المترجمة إلى اللغة الإنكليزية في عام1665، أقدمنا على متابعة أخبار البصرة في القرن السابع عشر عامة، وفي السنوات التي مكثها رحالتنا في هذه المدينة بخاصة، لأن صاحب الرحلة كان شاهد عيان لها.

---

[٩] رحلة ديللا فاليه، ص8؛ جرجي، المصدر السابق، ص94.

[١٠] رحلة ديللا فاليه، ص125-152؛ جرجي، المصدر السابق، ص94.

[11] Oaten, Op. Cit., P.127.

كانت التجارة عماد الحياة الاقتصادية في مدينة البصرة، وعليها دار كثير من أحداث الصراع البرتغالي- العثماني في الخليج العربي، بل والصراع العثماني- الصفوي. فقد إزدادت أهمية البصرة بعد انهيار النفوذ البرتغالي في هرمز عام1622، فأخذوا يبحثون عن مواقع جديدة لهم لممارسة نشاطاتهم التجارية والسياسية. وإذا استثنينا المدن العمانية التي تحولت إلى مراكز مهمة للنشاط البرتغالي بعد انتقال نفوذهم الرئيسي إليها عام 1622، فان البصرة كانت أحدى المواقع الجديدة التي وجه البرتغاليون أنظارهم إليها، وفي هذا يقول ديللا فاليه:

"أما عن شؤون البصرة فقد انتعشت فيها التجارة بعد سقوط قلعة هرمز، إذ ازدادت وفود البرتغاليين العاملين في الهند إليها، ولكثرة وجودهم فيها فقد رأيت أسطولاً دائماً لهم هناك يتكون من خمس سفن لحماية مصالحهم ضد العدو المشترك أي الفرس"[١٢].

بيد ان إنتعاش تجارة البصرة قد أثر تأثيراً مباشراً على تجارة المدن الفارسية الواقعة على الخليج العربي، بسبب أن آل افراسياب، حكام البصرة للمدة ما بين 1596-1668، قد فتحوا أبوابها أمام النشاط التجاري الأوربي، فاثار ذلك الشاه عباس الذي قرر السيطرة على البصرة في عشرينيات القرن السابع عشر، كي لا تتركز التجارة فيها[١٣].

وكجزء من التعاون العسكري بين البرتغاليين وآل افراسياب، أبان حكم علي باشا (1623-1650)، فقد لاحظ ديللا فاليه السفن البرتغالية في البصرة، التي خصصت لحماية المدينة من الهجوم الفارسي المرتقب، إذ يقول في ذلك:

"رأينا قائد الأسطول البرتغالي العامل في البصرة مع سفنه الخمسة، وله ثلاث سفن أخرى في النهر الكبير (أي شط العرب)، وكان الباشا معهم إذ كانوا يتوقعون هجوم الفرس"[١٤].

كانت عوامل الاحتكاك كثيرة بين علي باشا افراسياب والشاه عباس، فالبصرة وان كانت خاضعة للعثمانيين الا ان خضوعها كان بالاسم فقط، أما في الواقع فلا، لأن حاكمها الحالي (علي باشا) هو سيد مطلق واعترافه بالسلطان ظاهري فحسب، وهو صديق البرتغاليين- على حد قول ديللا فاليه[١٥].

---

[١٢] رحلة ديللا فاليه إلى العراق، ص132؛ جرجي، المصدر السابق، ص816.

[١٣] تافرنييه، العراق في القرن السابع عشر كما رآه الرحالة الفرنسي تافرنييه، نقله إلى العربية وعلق حواشيه بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مطبعة المعارف، بغداد، 1944، ص97-98.

[١٤] رحلة ديللا فاليه إلى العراق، ص133.

[١٥] المصدر نفسه، ص120-121.

فحالما طلب الشاه عباس من افراسياب باشا ان يعلن خضوعه له، وان يضرب السكة باسمه، وان يذكر اسمه في الخطبة بدلاً عن ذكر اسم السلطان العثماني، فانه لم يستجب لهذه الشروط، فكان ذلك مبرراً كافياً لقيادة حملة عسكرية ضد البصرة[١٦].

لما رأى الشاه عباس ان هذه الطرق لم تجد نفعاً أمر إمام قلي خان، حاكم شيراز، أن يجهز حملة عسكرية ويستولي على البصرة بالقوة. وقد حدث ذلك –كما يقول ديللا فاليه: (قبل وصولي إلى البصرة أي في نهاية سنة 1624[١٧]، ومطلع السنة التالية، ولكنه لم يحاصر البصرة نفسها كما قيل لنا ونحن في غوا [بالنهد] ولم يقترب منها، بل اكتفى بمحاصرة قلعة على الحدود تدعى قبان (التي كانت في ذلك الحين من أعمال البصرة)، وكادت ان تسقط بيد الفرس، وبسقوطها تتعرض البصرة للسقوط المؤكد)[١٨].

كان ديللا فاليه متيقناً من وقوع البصرة بيد الفرس، فهو يقول:

" لابد ان تسقط البصرة بيدهم أيضاً (أي الفرس) مع الأيام، ان لم يكن عن طريق البحر حيث تصدهم القوات البرتغالية، فعن طريق البرّ، لأنه من الواضح، ان الاستيلاء على بغداد يكتمل بالبصرة فهي ميناء مهم جداً"[١٩].

على ان ما وتوقعه ديللا فليه لم يتحقق، فالحصار البري وان كان أكثر فعالية من الحصار النهري لوجود القوات البرتغالية في شط العرب، الا أنه هو الآخر لم يأت أكله، فإلى جانب كثافة النيران التي كانت تطلقها السفن البرتغالية باتجاه القوات الفارسية، فان الاستعدادات القوية التي أعدها علي باشا إفراسياب قد أحالت دون سيطرة القوات الفارسية عليها، وكان ذلك في يوم الجمعة 12 محرم 1034هـ/25تشرين الأول1624م[٢٠]. على أن ديللا فاليه من جانبه قد ربط الفشل

---

[١٦] لمزيد من التفاصيل حول شروط الشاه عباس ينظر: المصدر نفسه، ص 138–139؛ كما نقل ج.ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، مطابع علي بن علي، الدوحة– قطر، د.ت، ج 4، ص1759–1760، هذه الشروط نقلاً عن ديللا فاليه.

[١٧] يبدو ان خطئاً وقع في هذا التاريخ، إذ ان النسخة الأصلية في رحلة ديللا فاليه تذكر عام 1624، وليس عام 1623 كما ورد في النسخة المترجمة للأب بطرس حداد، ينظر:

Piero Della Valle, The travels of Dalla Valle into The East India and The Arabia Desert, London, 1665, P.250.

[١٨] ديللا فاليه، المصدر السابق، 139.

[١٩] المصدر نفسه، ص125.

[٢٠] عبد علي بارحمة الحويزي، تاريخ الدولة الأفراسيابية الوارد ضمن مخطوط، السيرة المرضية في شرح الفرضية–دراسة وتحقيق، رسالة ماجستير غير منشورة، مقدمة إلى قسم الوثائق والمخطوطات بمعهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا مقدمة من قبل سعدون جاسم محمد الجزائري، بغداد، 2002، ص157.

بطول مدة الحصار إذ يقول: فترة الحصار، امتدت طويلاً فانهكت قواهم (أي الفرس)، فولوا عن المدينة[٢١].

وفي العام التالي، أي عام 1625، وفي أثناء وجود ديللا فاليه في البصرة، شن الفرس هجومهم الثاني على المدينة، فخرج علي باشا افراسياب بقواته إلى خارج المدينة للقتال، تدعمه ثلاث سفن برتغالية، الا ان عساكر الفرس- كما يقدرها ديللا فاليه، كانت عظيمة عدة وعدداً، أكثر بكثير من جيش البصرة[٢٢].

أصبح وضع علي باشا افراسياب حرج للغاية، ذلك لأن بغداد ما زالت تحت سيطرة الفرس، وان الطرق المؤدية إلى البصرة بيدهم أيضاً، مما يمنع وصول أي امدادات عثمانية للمدينة، فاعتقد ديللا فاليه إنها (أي البصرة) لن تنجو من السقوط في أيدي الفرس عاجلاً أم آجلاً [٢٣]، ويضيف ديللا فاليه، أما الجهة الوحيدة التي بامكانها مساعدة البصرة فهي البادية في شخص أميرها (مدلج أبو الريش)[٢٤]، وهذا الأمير ومن معه من عشائر هو أمل البصرة الوحيد.

لكن ما حدث كان أعظم من توقعات ديللا فاليه، فقد أعلنت حالة التعبئة العامة في المدينة واتخذت الاحتياطات اللازمة، وذلك بفضل حاكمها علي باشا أفراسياب، الذي أعلن التجنيد العام في البصرة، ونادى منادٍ فيها –في الثالث عشر من آذار عام1625- بان يخرج رجل عن كل بيت لمحاربة الفرس، الذين كانوا يقتربون من المدينة.فتوافد المتطوعون إلى معسكر علي باشا، ومن بينهم الشيخ عبد السلام الكواز، أحد أعيان البصرة، الذي جمع حوله عدداً من أفراد أسرته وأصدقائه واتباعه وتوجهوا إلى الجبهة لنجدة الباشا، وهم يحملون البنادق ومختلف أنواع الأسلحة، على حد وصف ديللا فاليه للموقف[٢٥].

ومن بين التدابير الأخرى للدفاع عن البصرة "اللجوء إلى طريقة عراقية صرفة –على حد وصف آداموف لها- للدفاع الذاتي وهي أنه (أي علي باشا) أمر بتخريب جميع السدود الأمر الذي حول المنطقة إلى مستنقع واحد كبير، فأجبر بذلك القوات الفارسية التي أرسلت من بغداد على

---

[٢١] ديللا فاليه، المصدر السابق، ص139.

[٢٢] المصدر السابق، ص140؛ وقد تناقل الناس أخبار عدد القوات الفارسية، التي قدرت بثلاثين ألف مقاتل، الا ان رحالتنا قد شكك في هذا الرقم، إذ أعتبر بان القليل منه كافٍ لدخول المدينة.

[٢٣] المصدر نفسه، ص141.

[٢٤] هو من أعظم أمراء البادية الممتدة ما بين حلب والبصرة، ومقر حكمه في مدينة (عنه)، وطاعته للحكومة العثمانية ظاهرية واسمية، ولقبه (أبو الريش) هو لقب أسرته. ديللا فاليه، المصدر السابق، ص176، 177، وهو هامش مطول للمترجم المحقق.

[٢٥] ديللا فاليه، المصدر السابق، ص142-143؛ جرجي، المصدر السابق، ص817.

التخلي عن مواصلة التقدم نحو البصرة [٢٦]. على أن ما تحدث به آداموف مستقى من رواية ديللا فاليه التي تقول: "ان فيضان المياه يحول دون تقدم الفرس إلى البصرة، فالنهر عريض وقد أغرق أراضي شاسعة، والخنادق مليئة المياه، وهذه كلها مصدر قوة للبصرة"[٢٧].

ومهما يكن من أمر، فقد انسحبت القوات الفارسية من البصرة، ولم تكن أسباب ذلك الانسحاب السريع معروفة حتى من قبل ديللا فاليه نفسه الذي كان في وسط الحدث، وان أوعز ذلك لأحد أمرين: "فأما ان موقع هرمز كان في خطر، أو ان أحداثاً جساماً كانت على وشك الوقوع من طرف العثمانيين، أو من جهة المغول، لأن الفرس سبق ان تحرشوا بهؤلاء[٢٨].

وبهذه النتيجة انسحبت القوات البصرية من أرض المعركة، بعد ان زال الخطر الفارسي عن المدينة، وعملت احتفالات مهيبة وعلى أصوات ودوي المدافع، كما قال ديللا فاليه[٢٩].

وتعرضت البصرة في عشرينيات القرن السابع عشر أيضاً لحصار فارسي ثالث، وقع عام1628م/1038هـ، وهو الذي سماه الحويزي (بذكرى نزول الخان على البصرة، وهو المسمى (بوقعة الرباط)[٣٠]. ولا تختلف الأسباب الداعية لحصار البصرة عام 1628 عن أسباب الحصارات السابقة، إذ أنه جاء نتيجة لعدم إنصياع علي باشا إفراسياب في الخضوع للشاه عباس، مما زاد من حالة (الوحشة والمنافرة) بينهما حسبما وصفها الحويزي[٣١].

تعد هذه الحملة حسب تقدير الحوليات الأوربية المعاصرة- واحدة من أضخم الحملات الفارسية الموجهة ضد البصرة، إذ ضمت حوالي ثمانية آلاف رجل[٣٢]. وقد قاد هذه الحملة إمام قلي

---

[٢٦] الكسندر آداموف، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، ترجمه عن اللغة الروسية الدكتور هاشم صالح التكريتي، مركز دراسات الخليج العربي، بجامعة البصرة، 1989، ج2، ص77.

[٢٧] ديللا فاليه، المصدر السابق، ص140-141.

[٢٨] المصدر نفسه، ص143.

[٢٩] المصدر نفسه، ص144؛ ويزيد غافن في وصف هذه الحالة فيقول: "وعاد الباشا برجاله والاعلام مرفوعة، والأبواق مدوية فخورة إلى البصرة في موكب محتفل بالنصر". أوربي في الأهوار العراقية: العودة إلى الأهوار، ترجمة فريد ضياء شكارة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ص59.

[٣٠] الحويزي، المصدر السابق، ص227. وعلى خلاف ما أثبته الحويزي والمصادر الأخرى المعاصرة يذكر ب.ج. سلوت خطئاً في كتابه، عرب الخليج 1602-1784، ترجمة عايدة خوري، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط 1، 1993، ص162، ان غزوا المدينة (أي البصرة) عام1629 لم يكن صحيحاً.

[٣١] الحويزي، المصدر السابق، ص228.

[32] Annon, Achronicle of The Carmelities in Persia and The Papal Mission of The 17th and 18th Centuries (London, 1939), Vol.I. P.284.

خان، وتقدم جيش فارس آخر من بغداد، بقيادة الشاه عباس نفسه، ونزلت قوات الخان في الطرف الغربي من البصرة، وفرضت الحصار عليها[٣٣].

ومن جانبه أجرى علي باشا إفراسياب التحصينات اللازمة لدفع خطر الهجوم الفارسي المتوقع على المدينة، التي كان من شأنها تأمين الجوانب الحربية والمعنوية لسكان البلدة المحاصرين، حسبما يتطلبه الموقف ذلك. وكجزء من التحصينات تعزيز مواقع الحاميات البصرية في القلاع المحيطة بالمدينة مثل (سويب) و(كردلان) و(القبان)[٣٤].

وإلى جانب ذلك، استخدمت خدعة تكررت في الدفاع عن البصرة عدة مرات من قبل، إذ كسرت السدة التي تحفظ المدينة من الغرق، وغمرت ما مسافته خمسة عشر فرسخاً إلى البصرة، وأربعة فراسخ مما وراءها، فاضطر الفرس الذين أحدق بهم الماء إلى رفع الحصار عن المدينة، بخاصة وقد ترامى إلى أسماعهم نبأ وفاة الشاه عباس[٣٥].

غير ان مما يؤسف له، ان عملية الدفاع عن البصرة بهذه الطريق قد تركت آثاراً سلبياً على أراضي المدينة وظهيرها، كما نبه إلى ذلك الرحالة الفرنسي تافرنييه، إذ يقول:

"ومنذ هذا الغرق (أي عام 1628) أصبحت أراضي وبساتين واسعة مغمورة بكليتها، أو ذات إنتاج زراعي ضئيل، للأملاح التي خلفها ماء البحر وراءه بعد إنحساره عنها"[٣٦].

وهكذا هي الحروب على مدى التاريخ، تحمل في طياتها الكثير من الأخطار والتهديدات للإنسان والبيئة، ولا تعود على أحد بالنفع، وهو ما حصل للبصرة في عشرينيات القرن السابع عشر، التي وان تكللت مساعيها في الدفاع عن المدينة بالنصر، إلا ان النصر نفسه كان ممزوجاً بتدمير كثير من أراضي البصرة، وإتلاف خصوبتها، كما انتبه إلى ذلك الفرنسي تافرنييه.

على ان مثل الوضع وغيره أدركناه من خلال ما كتبه لنا الرحالة الإيطالي ديللا فاليه، فلولاه لفاتنا الكثير من معلومات ذلك القرن، التي أوضحناها أيضاً بمصادر معاصرة.

---

[٣٣] الحويزي، المصدر السابق، ص229-230.

[٣٤] الحويزي، المصدر نفسه.

[٣٥] تافر نييه، المصدر السابق، ص97.

[٣٦] المصدر نفسه، ص97.